عراقيو المنافي.. "السويد أنموذجاً"

يولدون في بلد.. يترعرعون في آخر ويرغبون بالعودة إلى العراق

الشباب المغترب، الشباب المهاجر، هم أبناء وطن ما، أجبروا أو كان خيارهم استيطان بلد أخر..تلك التسميات لا قيمة لها في وضعهم الحالي، فهم أبناء هذه اللحظة، فيها يعيشون وأليها ينتمون.تتقاسمهم مثل باقي البشر نوازع وقيم ومفاهيم مختلطة ومركبة، لذا يبدون أكثر من غيرهم مظهرا متفردا لازدواجية القيم وتضاربها.الضرر الظاهر يبدو بسيطا ولا يكشف عن صيرورته مباشرة.ولكن حين يفصح هؤلاء الشباب عن رغباتهم تجد كم من الغربة والتغريب يتلبسهم.

شبكة واسعة من مفاهيم وتقاليد وعادات متناقضة ترميهم في لجج من إرباك وحيرة، ولكنهم بروح وصبوة الشباب يجعلون الوقت يمر ليكنس معه تلك العوائق ليوطنوا النفس في بقعة الأرض التي تمشي عليها أقدامهم اليوم، وتكتحل نواظرهم بلوحاتها وحركتها وشواهدها، وتتلقف أذانهم ضجيج أيامها الصاخب ليتوطن كل ذلك في قلوبهم الغضة المتفتحة.

يا ترى كيف يفكر هؤلاء الشباب بوطن الأسلاف والآباء، وما هو هذا الذي هم فيه الآن.كيف تتجسد لهم صورة الهوية والتعبير عن الانتماء.وما هي خصوصية وعيهم نحو مسمى وطن. ويا ترى كيف يستطيع المرء أن يضعه أمامهم؟

ستوكهولم / فرات المحسن

- ولد في موسكو من أم يمنيه واب عراقي وعاش حياته في السويد..لا يعرف العربية ولا يشاهد قنواتها ويعرفون العراق بالكلام والصور؟

- مغتربة: ولدت في الكويت وعشت في السويد واريد العودة الى العراق دون ان اترك السويد نهائياً

تتشظي أرواحهم بين الشارع والعائلة، رؤى ومفاهيم وصراع قيم تجعل ذواتهم غريبة تائهة بين هذه الأرض وتلك الأرض التي ربما البعض منهم لم يولد فيها وإنما توارثها عن العائلة مزاجا وعاطفة. وطن أحبوه شفاها ويشاهدون صورته المؤلمة تفاجئهم أينما حلوا.

ما أردت من لقائي بهم غير اكتشاف تلك المشاعر والبحث عن ما يشدهم لمسمى وطن، نشعره نحن الكبار مثل قطعة لا تكتمل دونها أجسادنا وأرواحنا.السؤال حول هذا المسمى لمجموعة من الشباب في العشرين من العمر بدا لي الهاجس الأول والأصعب.وللخوض في هذا الشأن أردت مقدما أن أقترب من مشهد الحدث اليومي لهؤلاء الشباب.أسئلة بسيطة أردتها أن تكون مفتاحاً لتوضيح تركيبة الأحداث ونوع العلاقة التي تربطهم بمحيطهم اليومي وكيف يواجهونها.فالأكيد أن التماثلات المتعددة للنشاطات المختلفة والتي تشمل القوى والميول والدوافع تنشط بشكل حر أو تقمع أو تخضع لاشتراطات خارجية،كل تلك الأفعال وأثارها تظهر في التفكير والسلوك العام.

لا يمكن للناظر في وجوههم أن يتجاهل بريق الذكاء الممزوج بالفرح والبراءة في عيونهم.كانوا يتكلمون على سجيتهم وكأنهم يجلبون من خاطرهم حكايات مكررة عن يوم العمل والدراسة والعائلة ووطن لم يتعرفوا عليه بوجهه الحقيقي ولكني وجدته يلامس وجدانهم وخيالهم ويوقظ فيهم مشاعر وأحاسيس برغم تشتتها فقد كانت تحمل الكثير من الحقيقة والتماسك والوضوح.

سألتهم عن مهنهم ودراستهم.عن حياتهم اليومية وما يواجهونه في المدرسة أو العمل.المقارنة بينهم وبين الشباب السويدي.الاختلاط بين الجنسين، موقف العائلة، لتكون تلك الأسئلة مدخلا لما أردت الوصول أليه.

تارا سيف فتاة بادية الرقة جميلة الطلعة تبلغ من العمر ٢١ عاما أنهت دراستها الثانوية وعملت في مهن مختلفة، عاملة مطعم، عاملة في صالون حلاقة وهي اليوم باحثة عن عمل جديد ولدت في الكويت من عائلة بصرية ووصلت السويد مع عائلتها حين كان عمرها ثلاث سنوات.

تقول تارا سيف أنها تستطيع التحدث باللغة العربية ولكنها تواجه بعض العسر في هذا الأمر، لذا تفضل دائما الحديث باللغة السويدية وهي لا تشاهد قنوات التلفزيون العربية أطلاقا كونها لا تفهم ما يدور فيها من حوارات.

تشاطرها الرأي مروه فرات البالغة من العمر ٢٠ سنة فهي أيضا تفضل الحديث باللغة السويدية وتعاني بعض الصعوبات مع اللغة العربية ولكن مروه تقول أنها تشاهد التلفزيون السويدي دائما ولكن تجذبها بعض المسلسلات التي تعرضها بعض القنوات العربية بالرغم مما تعانيه من صعوبة فهم للكثير من الحوارات، ولكنها تريد تتبع الأحداث في تلك المسلسلات حتى وان لم تفهم الحوار.

الشيء الذي عرفناه من رامي داوود جرجيس البالغ من العمر ١٩ عاما والمولود في موسكو من أم يمنية وأب عراقي وقدم الى السويد مع عائلته حين كان عمره ٣ أشهر، له طابع أخر. فهو لا يتكلم اللغة العربية ويفضل أن يتحدث باللغات السويدية والإنكليزية ولا يشاهد القنوات العربية مطلقا ولكنه يقول أنه يفهم الحديث بالعربية حين السماع.أنتقل الى إنكلترا بسبب ظروف عمل والده وعاد الى السويد في بداية عام ٢٠٠٨ للعمل كلاعب كرة قدم محترف.

حسين فؤاد عبد الأمير البالغ من العمر ٢٠ سنة له رأي في هذا الشأن فهو يقول بأنه يشاهد القنوات السويدية فقط ولا يود لا بل لا يهتم بقنوات التلفزيون العربية وما تنقله من مواضيع.حتى الأخبار عن العراق يستمع لها من التلفزيون السويدي.

بين هذه النماذج الشابة وموقفها من اللغة العربية ومشاهدة التلفزيون نجد من يقف في الوسط.أمين مهدي الخرسان. العمر عشرون سنة طالب في قسم البناء ويعمل أيضا في ذات المجال. خرج مع عائلته من العراق حين كان يبلغ السنتين من العمر.فهو يجيد العربية ويشاهد القنوات التلفزيونية السويدية والعربية ويتابع بعض المسلسلات فيها وبرغم أنه يحب الحديث باللغة العربية كما يقول لكنه يجد نفسه يتحدث السويدية طوال الوقت.

سارة الحسني بعد أن أنهت دراستها في الثانوية العامة تدرس اليوم هندسة وتأريخ الفن وتعمل أيضا في مجال الاتصالات وترويج الإعلانات.مولودة في العراق وقدمت الى السويد مع عائلتها عندما كان عمرها خمس سنوات تقول أنها تشاهد القنوات العربية بكثرة وتعزو ذلك لكون عائلتها تفضل مشاهدة القنوات الفضائية العربية وبالرغم من هذا فهي معجبة ببعض البرامج التلفزيونية السويدية وتؤكد بأنها متعلقة جدا بالمسلسلات العربية.لغتها العربية سليمة وتحاول تطويرها ومع هذا فحديثها حتى مع صديقاتها العربيات يكون دائما باللغة السويدية.

اختلافات ولكن

بعيدا عن حساسية الاختلاف في الثقافة بشكل عام، أي محاولة الابتعاد قدر المستطاع عن المقارنة بين طبيعة المجتمع السويدي والعراقي، نجد أننا نخوض هذا النقاش للوصول الى ما يهمنا من استنتاجات وليس المهم المقارنة.ولذا وجهت لهم ثلاثة أسئلة محددة. الأول يتعلق بما يواجهونه في المدرسة والعمل من قبل السويديين، وهل هناك تمايز وعنصرية في التعامل. إما السؤال الثاني فكان يتعلق بالمقارنة بين الفتاة السويدية والفتاة العراقية والرأي في مسألة وحدود الاختلاط بين الشباب.والسؤال الثالث كان حول العلاقة بالعائلة ورأيها في مسيرة حياتهم اليومية.

الجميع كان متفقا في الرأي بعدم وجود أي تمايز أو عنصرية واجهتهم لا في المدرسة ولا في العمل، وأشار بعضهم الى مشاهدات شخصية لمثل هذا الأمر تحدث أحيانا في الشارع، وهي تصرفات في عمومها فردية، وبشكل قاطع يجدونها مرفوضة من المجتمع السويدي.ولكن سارة الحسني تشير الى مشكلة ربما تعرض لها الكثيرين من الشباب المهاجر،فهي كفتاة من أصول أجنبية تجد تمييز عند أرباب العمل حين التقدم لشغل وظيفة ما، فبالرغم من أنها تلاقي الترحيب من رب العمل أثناء المقابلة فأن الأمر يختلف كليا لو أرسلت الطلب عبر البريد،وتعتقد أن السبب الرئيسي لرفض طلبها يكون دائما أسمها العربي.وهذا ما أكدته أيضا مروه فرات وتارا سيف.

عن العلاقة مع العائلة والاختلاط بين الجنسين يقول أمين الخرسان، في بعض الأيام أتأخر مساءا خارج البيت ولكن هناك ضوابط وقواعد في العائلة أحاول دائما أن ألتزم بها.ويهمني أن أحصل على رضا أهلي.ولا أجد ما يعيب في الاختلاط بين الجنسين لا بل أن المرء يتعرف من خلاله على أشياء كثيرة لم يكن يعرفها، وأشعر دائما بأن الصداقة بين الجنسين تنمي روح الأخوة والألفة.لدي الكثير من الصديقات السويديات حالهن حال أصدقائي من الشباب ولكن أنا أفكر دائما أن تكون هناك حدود للزمالة لا تخرج عن المألوف ولا تتجاوز حدود اللياقة.

حسين فؤاد يؤكد أن ظروف العمل والدراسة تأخذ منه الوقت كله ولذا فأنه لا يخرج كثيرا ويرجع الى البيت متعب، وهو يستغل العطل الأسبوعية ليسهر مع بعض الأصدقاء لوقت متأخر. يشاهد التلفزيون بشكل روتيني ولذا فصداقاته تقتصر على الوسط الدراسي وعلاقاته مع زميلاته علاقة طبيعية وينظر لهن نظرة احترام ومحبة ولا يتجاوز معهن حدود اللياقة والزمالة ولكنه يشير الى أن بعض العراقيين يحملون الكثير من الأفكار السلبية عن مسألة الاختلاط ويطلقون الكثير من الأحكام الخاطئة والمتسرعة على الفتيات قياسا على المظهر والحركات العفوية والسبب في ذلك يعود لكونهم مازالوا يحملون ذات الأفكار التي تربو عليها في وسطهم العائلي والاجتماعي بالرغم من مضي زمن طويل على وجودهم في السويد وبعضهم قد ولد هنا أيضا.وحسين يعزو ذلك لقصور عقلي.

تقول مروه فرات لا تريد أن تكون مثل الفتاة السويدية بالرغم من أنها تغبطها كثيرا.فالفتاة السويدية مختلفة في التصرف والملبس والحركة.ربما أن الذوق والثقافة سبباً لذلك.وتكمل قائلة، لكني أجد أن الفتاة السويدية تملك الكثير من الحرية وتفعل دونما حرج مالا نستطيع فعله.تؤكد مروه على أن الحرية شيء جميل وأرغب في أحيان أن أكون مثل الفتاة السويدية أسافر الى جميع أنحاء العالم لوحدي وأسهر خارج البيت ولكن هناك في داخلي الكثير مما يمنعني وأول ذلك هو قناعتي بأن التزامي برغبة العائلة شيء جيد ويناسبني جدا ويناسب وضعي بشكل عام.أما الاختلاط فتراه مروة طبيعياً ومهماً للشباب وينمي عندهم طباعاً ايجابية كثيرة ونظرة منفتحة للعالم.وهذا الشيء لا يشكل عندها أية موانع ولم تجد أي موقف سلبي من العائلة.

تارا سيف

وتجيب تارا سيف على الاسئلة قائلة: بأن علاقاتها لا تتحدد بنوع الجنس فهذه المسألة لم تخطر على بالها، ولها علاقات واسعة بين كلا الجنسين.ولكنها تستدرك لتقول أنها تجد صعوبة في صداقات البعض من الأجانب، فهم يختلفون في التفكير وأسلوب التعامل عن السويديين. فالبعض يكون تفكيره غير ناضج بحيث لا يحترم الصداقة ويسيء للعلاقة وللفتاة بشكل مباشر.

وهي تجد فروقا كبيرة بين الفتاة السويدية والفتاة العراقية والسبب في ذلك يعود للموروث الثقافي للعائلة من تقاليد وعادات.وتقول تارا، نادرا ما أتأخر خارج الدار ولكن أن حدث هذا أجد اللوم من العائلة ولكني وفي العموم ألتزم برغباتهم ومقتنعة بعض الشيء بذلك.

ساره الحسني

سارة الحسني تؤكد أن مسألة الاختلاط تخضع للظروف الشخصية وهي طبيعية بالنسبة للشباب ولكن المفاهيم في الوسط العائلي تنظر بحذر لهذا الأمر وربما لا تحبذه.وسارا لديها الكثير من الأصدقاء من كلا الجنسين ولكن علاقاتها في هذا الجانب لا تتجاوز رغبات العائلة ولذا تقول، علي الالتزام بتقاليد ومفاهيم العائلة وبما لا يضر بالسمعة.والتزامي بهذا الشيء يرضيني ويرضي عائلتي وأن حدث خلاف حول أمر ما، أجد دائما الوقت المناسب لمناقشته مع أهلي، وعائلتي ترغب دائما بتوجيهي بشكل مناسب دون ضغوط وإكراه.

قال الجاحظ في رسالة الحنين إلى الأوطان: ((كانت العرب إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة بلدها رملا وعفرا تستنشقه)).حين قلت هذا بدأ الأمر يتحول الى رطانة تصاحبها دهشة ظاهرة لا تخفيها وجوههم الغضة الفرحة.شيء من الاستغراب والهزأ وتساؤل عن معنى أن يحمل المرء شيء من تراب وطنه ليستنشقه في غربته.أردت أن أقرب لا بل الأصح أترجم لهم معنى حب الإنسان لوطنه كفطرة إنسانية،أن أوجز لهم المعنى المجازي لهذه العبارة فوجدتني أشتت أذهانهم أكثر فأكثر ووضعت نفسي وإياهم في حيرة وربكة وجاءت إيضاحاتي مثل هذيان متعب.عندها تداركت الأمر وقررت أن يكون سؤالي مباشر:هل تشعر بأن العراق وطن لك؟.

يقول رامي داوود جرجيس انه يشعر بأنه يقف على الحياد تماما بين وطن أبيه ووطن أمه وهو لا يحمل أية مشاعر خاصة لكلا البلدين. سبق وذهب مع والدته الى اليمن ويعرف الكثير عن ذلك البلد ومثل ذلك عن العراق أيضا، حيث يحدثه أبوه كثيرا عنه.يقول رامي داوود، أسمع من أبي الكثير عن العراق حيث تدور هناك معارك والناس يعانون من الأمراض وقلة الطعام. ولو أن أهلي قرروا الذهاب الى العراق سوف أكون معهم.أبي من كركوك وأود أن ألعب لفريق مدينة كركوك الجميلة حسب وصف والدي للمدينة.وربما يواتيني الحظ للعب مع الفريق الوطني العراقي وهم أبطال آسيا.ويكمل مع ضحكة فجائية مدوية لم أتبين سببها ولكنه كان حينها يتبادل النظرات مع أمين. أنا فرحت جدا ثم حزنت كثيرا لما آل أليه وضع نشأت أكرم فأنا أعتقد أن نشأت كان يستطيع أن يقدم الشيء الكثير لفريق مانشستر سيتي.

ساره الحسني ذهبت الى العراق مع عائلتها بعد سقوط حكم صدام وعاشت هناك ما يقارب الثمانية أشهر.في العراق وبعد مضي فترة قليلة شعرت برغبة عارمة للبقاء هناك.تقول سارة،أحسست بجمال الحياة ودفئها.الأقارب، المودة، الألفة، الجميع قريبون منك وحولك يحتضنوك ويشعروك بعواطفهم.الفرق كبير عن السويد فبالرغم من وجود الأقارب هنا ولكن ظروف الحياة العملية تجعلني بعيدة عنهم وربما يمضي أكثر من شهر دون أن أراهم.في العراق عوملت كسويدية حيث كنت أتصرف بما يعتبروه مخالف لعاداتهم وتقاليدهم ولذا تجدهم يطلقون جملتهم بشكل سريع..ها أنها سويدية..فأضحك من ذلك..ظروف عائلتي أجبرتنا على العودة الى السويد.أعتقد أني أملك شعور بأن العراق وطني ولكن شعور كبير ينتابني ليؤكد لي أن السويد وطني أيضا، فطفولتي وصباي وشبابي عشتها في السويد.الآن لا اشعر بذات الرغبة السابقة للعودة الى العراق.ربما ما أشاهده وأسمعه عن وقائع وأحداث تبعد عن ذهني كليا فكرة الذهاب.ولكن بيقين أقول لو أن الوضع تحسن هناك فأن لي رغبة شديدة للذهاب والعمل، وعندها تصبح السويد بلدا للزيارة فقط.

أمين مهدي الخرسان ذهب مع عائلته الى العراق عام ٢٠٠٥،يقول أمين أنه كان يعرف أن العراق وطنه وهناك له أهل وأقارب ولكن مشاعره ما حملت يوما أي معنى من معاني الاشتياق والشعور بالمواطنة أو حتى التطلع للمعرفة حول ذلك الوطن.يتحدث أمين: فرحت بسقوط صدام ولكني لم أكن أملك ذات المشاعر التي يحسها ويعيشها أهلي أو الآخرين ممن عاش في العراق أثناء حكم صدام حسين.

عند ذهابي الى العراق لمست الاختلاف الكبير بين السويد والعراق.فرق شاسع بين مجتمعين وحياتين. وبالرغم من وجودي بين الأقارب والمعاملة الطيبة الحميمة التي عوملت بها فأن كل هذا لم يساعدني على الشعور تجاه العراق كوطن.وكان شوقي الى السويد يؤكد لي أنه وطني الحقيقي حيث مدرستي وأصدقائي ومدينتي وأهلي أيضا.الزيارة الى العراق ربما تكون المناسبة الأكثر للتواصل مع الأقارب.

لحديث مروة فرات شكل أخر حيث تقول أن لديها فضولاً ولهفة كبيرة للذهاب الى العراق.أريد أن أرى أقاربي ومناطق سكناهم وكيف يعيشون، أن أتجول في المدن العراقية وأرى معالمها.أود رؤية بيت أهلي فلا يكفيني الوصف الذي أحصل عليه من والدي.التقيت أقاربي في كردستان حيث قدموا من بغداد الى دهوك عام ٢٠٠٠ وقد عشت بينهم متمتعة بكل دقيقة وشعرت مقدار الفرح والدفء الذي يملأ قلوبهم.كنت لحظتها أرغب بشدة أن أذهب معهم الى بغداد حين يعودون ولكن لم يكن بالامكان عمل ذلك لظروف والدي و والدتي. كان وجودي بينهم لحظات سعيدة جدا بالنسبة لي وأشعر بأنها لن تتكرر فالوضع الذي أسمع عنه وأشاهد بعضاً منه يبعث في نفسي الأسى ويجعلني غير متفائلة بالذهاب الى بغداد.واليوم تراني لا أشاهد الأخبار فقد أصبحت أتألم جدا.

لقد ترعرعت وكبرت في السويد لذا أشعر وبشكل كامل بأن السويد هو وطني الحقيقي.ومثلما قلت أتمنى أن أذهب الى العراق.ربما أفكر بمشروع خاص هناك وليس العمل لدى الآخرين.عندما أشاهد صور قديمة لوالدتي وصديقاتها وأصدقائها وخاصة في الجامعة حين كانت في العراق، أصاب بالدهشة من نوع الملابس التي يرتدينها فهي موديلات لأزياء عصرية تنم عن ذوق رفيع وتدل على مقدار التحضر الذي كان عليه حال العراق حينذاك، وبالذات المرأة، فذات الموديلات عادت الآن وترتديها النساء الأوربيات اليوم، وتعرض في معارض ومحال الأزياء. أمنيتي أن انشيء مشروعا خاصا في العراق، معرض أو محل أو معمل للملابس والأكسسوارات، والرغبة هذه أريد منها تغيير طبيعة ملابس المرأة العراقية وزينتها أيضا، فما أشاهده اليوم من أزياء يكرب النفس ويضجر الناظر.إما بالنسبة للرغبة في الذهاب والبقاء هناك فلا توجد عندي فكرة أو دوافع لذلك وربما الزيارة لمدة محددة هي الأفضل لوضعي في المستقبل.

أتأثر كثيرا بما يحدث في العراق وأشعر بالأسى والألم ولكن ما باليد حيلة.لي الرغبة بالذهاب الى العراق ولكن بصفة زائر.هكذا بدأ حسين فؤاد حديثه عن الوطن.لدي الكثير من الظروف التي تمنعني من الرجوع والعيش هناك وفي مقدمة ذلك كوني أعرف جيدا أن لا مستقبل لي في العراق.والشيء الأخر أني تعلمت في السويد الكثير وتأثرت بالأوضاع ووجدت أن هناك اختلاف كبير جدا بين المجتمعين في الثقافة والعادات والوضع الاجتماعي وهذه الأمور هي أفضل كثيرا في السويد منها في العراق، وكمثل على هذا الشيء أقول: أن رب العمل في السويد غيره في العراق.هنا مسؤول العمل شخصية منفتحة قريبة منك مهنيا وأخلاقيا لا توجد بينك وبينه حواجز وخاصة الحواجز المعنوية والعكس يحدث في العراق حيث يكون مسؤول العمل طاغية وشرطي قبل أن يكون مهنيا.

لو سنحت لي الفرصة للذهاب الى العراق فربما يكون هذا عبر مقاولة تحصل عليها الشركة التي أعمل بها.ومستقبلا أفكر أيضا لو أن الظروف تحسنت في العراق ربما أجد التشجيع والرغبة في تأسيس شركة خاصة بي هناك وهذا احتمال ضعيف وهو أمنية ليس إلا.

لا يوجد لدي أي تصور كامل عن ما يحدث في العراق.هكذا بدأت تارا سيف حديثها وهي تؤكد أنها تسمع الأخبار وتشاهد صوراً مفزعة ويتحدث أهلها وأصدقاؤها عن أحداث خطرة ومروعة.ولكنها تود الذهاب الى هناك بالرغم من عدم وجود رابط معنوي لفكرة وطن في ذهنها وهي المولودة في الكويت.وبدت فكرة الذهاب للعمل هناك مستقبلا مسألة صعبة للغاية واختتمت قولها بأنها لا ترغب في ترك السويد مطلقا حتى وأن قرر الأهل ذلك.

هل تعد مثل هذه المسألة ظاهرة تستحق الدراسة أم تراها مسيرة طبيعية فرضتها ظروف ضاغطة قاسية واستوعبتها حالة أخرى منحتها الطمأنينة والإحساس بالكينونة والوجود الإنساني، ذلك ما لا يمكن الجزم به ويبقى جزء من مسيرة الناس في هذا الكون المترامي حين تقتلعهم القسوة والعنف والعوز من جذورهم لترميهم في عالم أخر عليهم أن يغذوا السير ليتوطنوا فيه.

تارا سيف

حسين فواد